مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(3): 433–454
DOI: 10.31456/beytulmakdis.809423

القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني:
حياته وجهوده العملية والفكرية في تحرير بيت المقدس

رتيبة بوزيدي* / خولة مهني**

ملخص: لقد أولى السلطان صلاح الدين عناية واهتماما بالغا بالعلم والعلماء، فبذل تشجيعا ماديا ومعنويا لهم، فكان يحضر مجالسهم، ويشارك فيها مشاركة فعالة، لأنه استوعب أن من أسباب تحقيق الإنتصار ضد المد الشيعي والباطني والغزو الصليبي هو وجود هذه القيادة الربانية التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فصلاح الدين يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملا سياسيا أو عسكريا فحسب، فكان لهذه الصفات التي اتصف بها السلطان مع رعايته واهتمامه بالعلم والعلماء أثر بالغ في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية في عهده حتى كان من بناة النهضة العلمية، وحماة أربابها في عصره، حيث وصفه أحد الدارسين بأنه *"عصر إحياء الفكر والثقافة الإسلامية والعربية، كما كان عصر إحياء سياسي"*. وقد أسند للعلماء والأدباء مناصب رفيعة في دولته وكفى بمجلسه عظمة حضور القاضي الفاضل وزيرا ومديرا ومشيرا، وغيره من علماء عصره الذين كتبوا تاريخا حافلا بالبطولات التي كان أبرزها إعادة بيت المقدس إلى أحضان المسلمين مجددا. لهدف من خلال هذه الدراسة إلى التعرف على الحياة الشخصية والعملية للقاضي الفاضل، مع إثبات أن صلاح الدين ذلك القائد هو فرد من كيان أمة وجزء من كل متكامل من بينها هذا الرجل العظيم الذي ساهم بقلمه وعمله في الفتح المبين لبيت المقدس، وكذا التعلم من سيرته للحاجة الماسة لذلك في الوقت الراهن للتصدي للاحتلال الصهيوني.

الكلمات المفتاحية: العلم، بيت المقدس، الدولة الفاطمية الشيعية، الدولة الأيوبية، الاحتلال الصليبي.

The Virtuous Judge (Al-Qadi al-Fadil) Abd al-Rahim Al-Bisani:
his life and Intellectual endeavours to Liberate Bayt al-Maqdis

ABSTRACT: *Sultan Salah al-Din gave great care and attention to knowledge and scholars, giving them both moral and material encouragement. He was known to attend their lessons and actively participate in them. He understood that one of the reasons for achieving victory against the Shitte, Batini and the Crusader was the presence of a devout leadership that can move the Ummah with the grace of God towards its set goals in steady steps. Salah al-Din was fully convinced of the importance of such devout scholars within his ranks. As such, he knew that liberating the land and uniting them was not only a political or military action. Together with his interest in scholars, he revitalised the cultural and intellectual*

* صحفية، ماجستير علوم الإعلام و الإتصال، دولة الجزائر، rittajifer@gmail.com
** موظفة بقطاع التربية، دولة الجزائر، balsouma43@gmail.com

scene during his reign. Thus, he became one of the builders of the scholarly renaissance, and the protectors of its pioneers in his era. One of the scholars described it as "the era of revival of Islamic and Arab thought and culture, just as it was an era of political revival". He assigned scholars and authors to high positions in his state and council, including through the presence of the virtuous judge, minister, counsellor Abd al-Rahim al-Bisani amongst other scholars. They have contributed to a history full of heroic action, the most prominent of which was the return of Bayt al-Maqdis to the hands of Muslims again. This study aims to discuss the personal and practical life of the virtuous judge Abd al-Rahim al-Bisani, as well as demonstrating the leader Salah al-Din to be an individual in the entity of the Ummah as part of the integrated whole. Al-Bisani, as one such prominent member, contributed with his pen and work to the liberation of Bayt al-Maqdis. Learning from his biography and life is urgently needed for our present time to confront the Zionist occupation.

KEYWORDS: *Knowledge, Bayt al-Maqdis, Fatimid state, Ayyubid State, Crusades.*

مقدّمة

إن التحرير بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، و لم ينجح مشروع تحريري عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعوا إليه وتنشر مبادئه بين الناس، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب. وهذا ما يصبو إليه هذا المشروع المعرفي بقيادة البروفيسور عبد الفتاح العويسي في زماننا هذا، فالمعرفة وقود الفتح وأولى خطوات التحرير، كما كانت الحقبة الزمنية لصلاح الدين الأيوبي حافلة بأبرز المواقف وهو الفتح الثاني لبيت المقدس وتحرير المسجد الأقصى من براثن الصليبيين، وفي سيرورة هذا الحدث التاريخي نجد أن السلطان صلاح الدين قد أولى اهتماما بالغا للعلماء والكتاب وعلى رأسهم القاضي الفاضل وهو بذلك يخالف موقف السلطان من الكتاب في أغلب الأحيان، لأن الدولة في بدايتها غالبا ما تكون في حاجة إلى أرباب السيوف أكثر من حاجتها إلى أرباب القلم، وقد فصل ابن خلدون في هذه القضية في قوله:

> اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره؛ إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك المعونة.[1]

بيد أن صلاح الدين أعطى قلم القاضي الفاضل هذه الأهمية الكبيرة، لأنه رأى فيه من القدرة على القيام بما يعجز عنه السيف في بعض الأحيان وفي ذلك قوله "لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم وإنما بقلم

الفاضل"،[2] ولهذا إرتأينا أن يكون موضوع بحثنا عن القاضي الفاضل هذه الشخصية التي نالت بقلمها وفكرها وعملها شرف المقام والمقال في جل الكتابات.

أولا: حياته ونشأته

اسمه

أجمع الذين ترجموا للقاضي الفاضل من المؤرخين على أن كنيته أبو علي، واسمه عبد الرحيم، واسم أبيه علي، واسم جده الحسن، فقالوا عنه: "أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج.[3] أما ألقابه فقد أطلق هؤلاء المؤرخون عليه لقبين يمثلان دوره في دولة صلاح الدين، فأشار البعض إليه بمحي الدين، والبعض الآخر بمجير الدين. فهو محي الدين لأنه ساعد صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية واحياء السنة في مصر، وهو مجير الدين لوقوفه إلى جانب صلاح الدين في تحرير الأراضي المقدسة.[4]

نسبه

وفي سلسلة نسب القاضي الفاضل هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج اللخمي، البيساني الأصل، العسقلاني المولد، المصري الدار".[5] ومما نلاحظ أن القاضي الفاضل ينتمي في نسبه أولا إلى قبيلة لخم العربية، وهذه القبيلة عريقة الجذور بأرض بيت المقدس وفلسطين؛ هاجرت من اليمن إلى العراق والشام وفلسطين في نحو القرن الثاني الميلادي، واستوطنت أماكن عديدة في بيت المقدس تمتد ما بين الرملة ومصر، على الساحل، وفي سيناء. كما أن أبناءا منها استوطنوا مدينة بيت المقدس ونابلس ومنطقة الغور و غور الصافي المعروفة قديما بـــ زغر(صقر) ومنطقة البحر الميت، كما استوطن بعضهم الخليل وجبالها وصفورية، واستوطنت أفواج أخرى منهم في مصر عندما فتحها عمرو بن العاص.[6] كما ينتمي جغرافيا ومكانيا إلى مدينتين عريقتين هما: بيسان[7] وعسقلان،[8] وأما الذين نسبوه إلى بيسان، فقد نسبوه إلى بلدة الإقامة، يقول المنذري: "وكان والد القاضي الأشرف تولى الحكم ببيسان، فنسبوا إليها وغلبت عليهم"،[9] وأما عسقلان فهي التي ولد بها، وأصبح والده قاضيا عليها.

مولده

ولد القاضي الفاضل في عسقلان في عائلة مؤلفة من ثلاثة أبناء وبنت.[10] وهناك روايتان بشأن تاريخ ولادته، إحداهما تشير إلى أنه ولد سنة 526هـــ/1131م حيث نجد أن ابن واصل حينما يتحدث عن زمان وفاة الفاضل، يقول: "وكان مولد القاضي الفاضل على ما بلغني سنة ست وعشرين وخمسمئة، فكان عمره نحو سبعين سنة".[11] وقد أيده في ذلك أبو الفداء[12] وابن الوردي،[13] والنويري.[14] والرواية

الاخرى تشير إلى سنة 529هـ/1134م.[15] والأرجح أنه ولد سنة 526هـ/1131م لأنه يذكر في رسائله أنه تجاوز السبعين عاما، قائلا "فإن السبعين جزت عتبتها، وقطعت عقيدتها، واسأل الله الخير في القدوم عليه واللطف عند الوقوف بين يديه" ولعله كتب هذه الملاحظات في العام الأخير من حياته 596هـ/1199-1200م.[16]

ملامح شخصيته

لم يكتف بعض المؤرخين الذين كتبوا عن القاضي الفاضل من ذكر صفاته الخلقية فحسب، بل كتبوا أيضا عن بعض ملامحه الخلقية، يقول عبد اللطيف البغدادي وهو ممن شاهدوه وألتقوا به في بيت المقدس: "فدخلنا عليه، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب"،[17] يعني أنه كان نحيف الجسد وهذا ما يؤكده الذهبي بقوله: "ضعيف البنية، رقيق الصورة".[18] أما الأسيوني فيصفه بقوله: "وكان دميم الخلقة، أسمر وبه حدبة، يغطيها بالطيلسان".[19] وهنا يبرز لنا أن لون بشرته سمراء، له حدبة يحجبها عن أعين الناس، ويقول العماد الأصفهاني: ناحل الجسم ذو خطاب به يصغر للدهر كل خطب جسيم.[20] كما يبين القاضي ضعف جسده فيما كتبه عن نفسه: "..وجنبي طريح، وما في صحيح إلا سقمي فإنه صحيح، وإذا لقيتوا الذين آمنوا أئن وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح".[21] وقد تغلب القاضي الفاضل عن كل هذا بصفاته الخلقية التي جعلت له مكانا مرموقا في الأرض ذكرا وعملا وتوفيقا.

عائلته العلمية

نشأ القاضي الفاضل في بيئة علمية راسخة في العلم، وهو سليل عائلة توراثت القضاء أبًا عن جد. حيث كان جده السعيد محمود بن الحسن (ولد سنة 460هـ/1067-1077م) قاضيا في بيسان، هذا المنصب الذي يعد من أعلى المناصب الإدارية؛[22] يقول المنذري: "وكان والد القاضي الأشرف تولى الحكم ببيسان، فنسبوا إليها وغلبت عليهم". أما والده: هو الأشرف أبو المجد علي بن الحسن العسقلاني البيساني،[23] ولد سنة 501هـ/1107م،[24] تعلم فيها الفقه وفن الكتابة، إلى أن عمل قاضيا فيها، أما أخوه الأثير أبو القاسم عبد الكريم ولد سنة 537هـ/1142م بعسقلان، كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وشرائها، فكانت مكتبته تتكون من مائتي ألف كتاب، وفيها نسخ متعددة لبعض الكتب، فالصحاح جمع له ثماني عشرة نسخة.[25] كما عرف عن أخيه الآخر[26] أنه كان مغرما بجمع التحف، من خزف، وقدور، وفرش، وكان بيته مملوءا منها، وإذا رأى خاتما أو سمع به اجتهد في تحصيله واشتراه.[27]

عصره وأثره على ثقافته

عاصر القاضي الفاضل فترتين حاسمتين في حياته، تمثلتا في الدولة الفاطمية الشيعية، والدولة الأيوبية التي عاشها بكل حذافيرها، وتفاصيلها من أحوال سياسية، وثقافية، واقتصادية، واجتماعية، كان لها تأثير كبير على حياته وفكره وأدبه. كان القاضي الفاضل ذا شخصية واسعة الإطلاع منذ صغر سنه، متنوعة الثقافة، غنية بالمعارف والعلوم المختلفة، فدرس القرآن والحديث وديوان الحماسة وغيرها من العلوم في جوامع المدينة التي كانت موئلا للفقهاء من فلسطين وغيرهم ممن أراد الجهاد والشهادة؛ يقول الذهبي:"حفظ القرآن، وكتب ختمة، وقرأ الجمع بين الصحيحين على ابن فرح، عن رجل، عن الحميدي، وصحب أبا الفتح محمود بن قادوس المنشئ".[28] ويضيف المقريزي: "ويشتغل بعلوم الأدب، وتفسير القرآن"، [29] وفي أدبه وشعره ما يؤكد لنا سعة حفظه لأشعار العرب وأقوالهم، ولاسيما ديوان المتنبي الذي كان القاضي الفاضل معجبا به، وديواني أبي تمام والبحتري، وغيرهم. كما انتهت إليه براعة الإنشاء وبلاغة الترسل،[30] وله من ذلك معان مبتكرة لم يسبق إليها مع كثرتها، ومما يشهد على ذلك ما أورده معاصره العماد الأصفهاني عن نتاجه الأدبي الوفير إبان الحروب الصليبية، ولم يكرر فيه لفظا ولا دعاء، إنما كان في كل عمل أدبي ينشئه يبتكر شيئا جديدا من مخزونه الثقافي الواسع، يقول: "وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتباته، ولا ردد لفظا في مخاطبة، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة، مبتدعة لا مفتكرة، بالعرف والعرفان معرفة لا نكرة".[31] ويضيف مؤكدا ذلك فيقول: "إن شاء أنشأ في يوم واحد، بل في ساعة واحدة، ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة".[32]

شيوخه

هاجر عبد الرحيم البيساني من عسقلان إلى القاهرة للتعلم على يد كبار علمائها وشيوخها فكان أبرزهم:

1- الموفق بن خلال

لم يخف عن المؤرخين وعلماء فن الكتابة أن القاضي الفاضل رحمه الله قد أخذ علم الإنشاء وحكمه عن الموفق بن الخلال منشيء الخليفة الحافظ، ورتبته في الإنشاء معلومة.[33] وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق،[34] قابل ابن خلال القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء بالقاهرة، وكان ابن خلال قد سمع عن نية عبد الرحيم تعلم فن الكتابة فاستقبله بكل لطف، وبادله الحديث عن عسقلان وأهلها، واستفسر عن أهدافه، فرد عليه عبد الرحيم بأنه قصد التدرب على الكتابة، والإنشاء والإدارة، فطلب منه أن يلازمه، ثم طالبه بنشر ديوان الحماسة ففعل، فلاحظ ابن خلال نبوغ تلميذه، فوجهه خير توجيه، وساعده في تنمية مواهبه ودربه على فنون النثر، والكتابة الديوانية، ودرس قواعد اللغة العربية من نحو وصرف، وعلم الغريب من ألفاظ اللغة كما درس الأمثال والخطب.[35]

2- ابن قادوس

اتصل القاضي الفاضل في شبابه أيضا بابن قادوس وتتلمذ على على يده، وهو ابو الفتح محمود بن إسماعيل القهري المعروف بابن قادوس،[36] أصله من دمياط، كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية كان من شعراء الدولة وأدبائها[37]وصف المسير ابن قادوس بقوله: "كان من أماثلهم المصريين وكتابهم، مقدما عند ملوكهم".[3938] وصار أحد رجال الملك الصالح طلائع ابن رزيك، وظل في ديوان الإنشاء حتى مات سنة خمسمئة واحدى وخمسين هجرية.[40] وقد كان معروفا ومشهورا، مما دفع القاضي إلى الاقتداء به في الكتابة، فكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين،[41] يريد بذلك بلاغة الشعر والنثر، وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا في ركوبه من القصر إلى منزله، ومن منزله إلى القصر، فيسايره ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.[42]

3- ابن الشخباء

لم تخف عن القدماء أيضا تلمذة القاضي الفاضل لابن الشخباء وقيل في ذلك أن القاضي الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه، وإنه كان يستحضر أكثره.[43] وهو الشيخ المجيد ذو الفضيلتين أبو علي بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني ت.482هـ/1089م،[44] الذي كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر،[45] أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة. قال عنه ابن خلكان: "انه صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى".[46] ونعته ابن بسام بقوله: " كان من البلغاء الأفراد، وأبهر بقوم تلك البلاد طلوعا من ثنايا الأدب واجتناء لخبايا لسان العرب".[47] كما جاء في معجم الأدباء أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني استمد من رسائل ابن الشخباء المدونة المشهورة وبها اعتد.[48]

4- ابن حديد

وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن حديد، كان قاضي الإسكندرية وناظرها، وكان فقيها عالما مترسلا، تتلمذ القاضي الفاضل منذ مغادرته القاهرة إلى الإسكندرية سنة 549هـ/1154م، ووفق في عمله عند ابن حديد. [49] فاستكتبه ابن حديد، وأطلق له معلوما، وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل، وهي مشحونة بالبلاغة.[50] وفي الديوان حُسد القاضي الفاضل على فضيلته، فقيل للظافر عنه: أنه قصر بالمكاتبة، وكان صاحب ديوان المجلس الأثير بن بنان يحكي أنه دخل على الظافر، فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه؛ بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين شبر، وهذا سوء أدب، فقال الأثير للظاهر: تأمر بإحضار الكتب، فلما قرأها الأثير علم فضل الفاضل، فقال له: هذا الكاتب لم يحصل

منه سوء أدب، وإنما حسد على بلاغته، فعمل على أذاه، فقال: اكتب لابن حديد يسيره إلينا، لنستخدمه فصار من كتاب الدرج في أواخر الدولة العبيدية.[51]

5- العميدي

هو محمد بن أحمد بن محمد بن سعد العميدي، أديب، نحوي، لغوي، مصنف، له أدبيات مشهورة.[52] كان يتولى ديوان الترتيب وعزل عنه أيام الظاهر ثم تولى ديوان الإنشاء بمصر في أيام المستنصر، ومن تصانيفه في الأدب "كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات".[53] تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الإنشائية بحل أبيات الشعر وجعلها منثورة، وأخذ يتقن فن الكتابة، على الطريقة الشائعة في عصره، حتى اختط لنفسه طريقة عرفت به، وقد أسس طريقته على طريقة العميدي التي تستلزم السجع والطباق، وتتوسع في الخيال.[54]

6- ابن عبد كان

أخذ القاضي الفاضل فن الكتابة بطريقة غير مباشرة من ابن عبد كان، وهو أحمد بن مودود.[55] كاتب أحمد بن طولون الذي أحضره من بغداد إلى مصر، وقد نال شهرة واسعة في عصره وبعد عصره.[56] وعرف ابن كان بجودة أدبه وفنه حتى قال عنه صاحب الفهرست: "كان بليغا مترسلا وفصيحا، وله ديوان رسائل كبير".[57]

ثناء العلماء عليه

كان للباع الفكري والخلقي الذي تميز به القاضي الفاضل ثناء بين ألسن كبار العلماء والكتاب والشعراء، حيث قال عنه العماد الأصفهاني في كتابه الخريدة: "رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بعتباره".[58] وقال فيه الطبيب موفق البغدادي: "..دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه على إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه.[59] وهذا ما يؤكد من أن القاضي الفاضل كان ذا شخصية واسعة الإطلاع متنوعة الثقافة، ولم يختصر هذا على زاده العلمي فحسب بل كان لشخصيته الدينية الإسلامية السنية انعكاس على رقي أخلاقه. فقد وصفه السبكي قائلا: "وكان رحمة الله عليه كثير العبادة والتلاوة يختم في كل يوم وليلة، كثير المطالعة والصدقة والصلة".[60] وينوه المقريزي أيضا بحسن تدين وتقواه، فيقول: "وكان له الدين والعفاف والتقى والمواظبة على أوراد الليل والصيام وقراءة القرآن".[61] كما كان حريصا على شؤون المسلمين خاصة الفقراء منهم، فيقول ابن الأثير عن انفاقه وافتدائه لأسرى

المسلمين: "وكان دينا كثير الصدقة والعبادة، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى".[62] ويضيف سبط الجوزي مؤكدا ذلك: "ووقف على الأسارى وقفا عميما، فاستنفذ به خلقا عظيما".[63] ويقول الذهبي في زهده: "وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض".[64]

وفاته

كان القاضي الفاضل ضعيف البنية كثير المرض، وفي رسائله إشارات كثيرة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي. توفي القاضي الفاضل بعد كل هذه الآلام الجسمية والمعنوية في السادس من ربيع الأول 596هـ/1199م،[65] في القاهرة ودفن في سفح المقطع في القرافة الصغرى.[66] قال العماد الأصفهاني في حوادث هذه السنة ناعيا إياه: "تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة". وذكر في وفاته أنه عمل ليلة العشاء السابقة لوفاته في مدرسته، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها وتحدث مع ما شاء وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام وغرفتي حين أفضى مني المنام، فوافاه سحرا للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر ان كلم الحمام حمى من الكلام، وان وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه من الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت فلبث يومه لا يسمع إلا أنين خفي علم منه بأن بعهد الله وفي، ثم قضى سعيدا.[67] ومما يذكر هنا أن القاضي الفاضل الذي عاش عزيزا مكرما في ظل صلاح الدين وخلفائه، أحس أنه سينتقص من قدره ومكانته على يد ابن شكر[68] وزير العادل، إذ كانت بينهما وحشة، فتمنى القاضي أن يموت قبل أن ينتقص من كرامته أحد. قال سبط الجوزي: "لما تيقن القاضي استيلاء العادل على القاهرة، دعا على نفسه بالموت خوفا من ابن شكر وزير العادل، فإنه كانت بينه وبينه وحشة، فخاف أن يستدعيه ويهينه، فقام تلك الليلة يبكي، ويصلي فأصبح ميتا".[69] وبهذا يكون القاضي الفاضل رحمه الله قد عاش سبعين عاما ذاد خلالها عن عقيدته ووطنه بقلمه وفكره.

ثانيا: حياته العملية

عمل القاضي الفاضل في مستهل حياته بالإدارة المصرية في الإسكندرية والقاهرة خلال الفترة الواقعة بين 549-563هـ/1154-1169م، وما لبث أن تدرج في مناصب كثيرة إلى أن أصبح وزيرا مرموقا في دولة صلاح الدين سنة 567هـ/1171م.

عمله في فترة حكم الدولة الفاطمية

عاصر القاضي الفاضل فترة حكم الدولة الفاطمية، فخدم في ديوان الجيش، وأصبح المشرف الإداري لجيوش الوزير رزيك بن طلائع مدة تقل عن العامين من رمضان 556 حتى محرم 558هـ/1160-1162م، واتبع سياسة التسامح واسقاط الظلم عن الناس.[70] لكن في تلك الفترة وقع صراع بين بين شاور والي قوص وبين الوزير رزيك بسبب عزل الأخير لشاور عن ولاية قوص، مما أثار غضب شاور فعاث خرابا في البلاد، فهرب رزيك، واتجه إلى ولاية اطفيح، لكن شاور تمكن من قتله في محرم 558هـ/كانون الثاني 1162م.[71] وبعد وفاته لم ينقطع الفاضل عن عمله في ديوان الجيش فخدم كلا من شاور وابنه الكامل، حيث قابل شاور عبد الرحيم في ديوان الجيش وضمه إلى حاشيته الجديدة.[72]

لم تطل أيام شاور بالوزارة، حيث ثار ضرغام بن سوار عليه في سابع عشر رمضان 558هـ/1163م، وجمع له جموعا كثيرة، وقتل ولديه سليمان وطيبا، أما الثالث وهو الكامل فقام بسجنه هو والقاضي الفاضل لمدة تسعة أشهر.[73] فاضطر شاور للهرب إلى فاقوس، ثم لجأ إلى نور الدين محمود في دمشق وطلب منه عسكرا ليكونوا معه ليفتح الديار المصرية، ومقابل ذلك يكون لنور الدين ثلث دخل مصر.[74] فأرسل نور الدين مع شاور جيشا شاميا بقيادة أسد الدين شيركوه الذي وصل إلى مصر، واقتتل مع الجيش فهزمهم شيركوه، وقتل منهم كثيرا، وقتل ضرغام واستقر أمر الوزارة إلى شاور وأعيد إليها سنة 559هـ/1164م.[75] وعند دخوله القاهرة كان القاضي لا يزال معتقلا هو والكامل ابن شاور فأطلق سراحهما، وسعى للقاضي الفاضل عند والده شاور، فأقره عوضا عن ابن الخلال رئيسا لديوان الإنشاء،[76] وكان يصحبه في حروبه بصفته مسؤول عن الإتصال بالجهات المختلفة، ومسؤول عن عرض القوات وعدها، وتسجيل المشتركين بالحرب ومن يموت منهم في المعركة.[77]

رجع شاور عما اتفق عليه مع نور الدين محمود، وأمر أسد الدين بالرجوع إلى الشام فامتنع، فاستنجد شاور بالفرنج، وخوفهم من نور الدين إن ملك مصر، فسارعوا إلى تلبيته، وطمعوا في ملك الديار المصرية، وساروا إلى بلبيس، حيث عسكر شيركوه مع جيشه.[78] وسار نور الدين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير، فلم يلتفتوا، وتركوا في بلادهم من يحفظها.[79] وسار ملك القدس أموري في الباقين إلى بلبيس، واستعان بجمع كثير كانوا خرجوا إلى زيارة بيت المقدس، وحاصروا شيركوه، والعسكر المصري ثلاثة أشهر، وهو يغاديهم القتال، ويراوحهم، فلم يظفروا منه بطائل، وتم الإتفاق بعد ذلك على الصلح، على أن يدفع شاور لأسد الدين مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأن يعود إلى الشام.[80]

وقد أرسل نور الدين قائد جنده شيركوه مرة ثانية سنة 562هـ/1167م إلى مصر، واستعان شاور بالفرنج الذي قدموا إلى مصر، ورغم انتصار شيركوه في معركة البابين على الفرنج لكنهم نجحوا فيما

بعد من محاصرته في الإسكندرية، ووافق الطرفان على توقيع الصلح والعودة عن مصر.[81] وقد عاد أسد الدين شيركوه مرة ثالثة إلى مصر سنة 564هـ/1169م بعد استنجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين على الفرنج، الذين قدموا من جديد إلى مصر بهدف احتلالها، وقد استطاع شيركوه تخليص مصر من خطر الفرنج الذين عادوا عن مصر ما إن سمعوا بقدوم جيش أسد الدين شيركوه.[82] فتمكن شيركوه من قتل شاور في نفس العام،[83] وبموته انتهت فترة خطرة من تاريخ مصر، وبعدها دخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصرا، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش.[84] وفي حال تولية الوزارة أخذ يتقرب من رجالات الدولة الفاطمية، وكان من بينهم القاضي الفاضل نائب رئيس ديوان الإنشاء، فضمه إليه وأصبح من مستشاريه المقربين بحكم مركزه في ديوان الإنشاء في القاهرة، وبحكم علاقته مع الشاميين عن طريق المراسلات أعجب شيركوه بأسلوبه الأدبي وفصاحة لسانه، وكلامه المليء بالتشابيه والإستعارات.[85]

القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين

العلاقة بين القاضي الفاضل وصلاح الدين

نال القاضي الفاضل مكانة مرموقة لدى السلطان صلاح الدين فور استلامه وزارة العاضد،[86] حيث فوض الوزارة وديوان الجيش له، وقربه منه فاتخذه كاتبه ووزيره ومستشاره في الحل والترحال، ومنحه ثقة حتى أصبح من خاصته المحببة إلى نفسه، لا يقدم على فعل شيء إلا بمشورته ورأيه. قال سبط بن الجوزي: "وكان القاضي الفاضل حاكما على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم، لا يصدر السلطان عن رأيه، ولا يمضي في الأمور إلا بمضاته".[87] ويقول المنذري: "وتقلب في الأمور الديوانية بالدولة المصرية، ثم وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين، وكان الغالب على أموره، وتقدم عنده كثيرا وركن إليه ركونا تاما.[88] وذكر ابن فضل العمري: " كان الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحامل لكلها، والمجهز لبعوثها، والمبرز عند إقعاء ليوثها".[89] ويقول السبكي: "وكان صديق صلاح الدين وعضده ووزيره، وصاحب ديوان إنشائه، ومشيره، وسميره". وأما ابن كثير فيقول: "وكان أعز عليه من أهله وولده".[90]

ولقد خص صلاح الدين القاضي الفاضل بثقته التامة نظرا لما قدمه هذا الأخير من إصلاحات سياسية ومالية وحربية، وفي جهاده مع الصليبيين؛ وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني: "سلطانه مطاع والسلطان له مطيع –رحمه الله– من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادئ أمور دولتة وغاياتها ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه".[91] ومما يؤكد لنا أيضا حب صلاح الدين العميق للقاضي الفاضل وإصغائه لنصحه ومشورته أنه عطل حجته بناءا على رأي الفاضل، لأن الفرنجة كانوا ما يزالون في ديار الإسلام، وفي ذلك يقول:

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج -الله يجعله مبارك ميمون-، ولكن لا أفسح له فيه إلا بعد اثنتين: واحدة أنه لا يركب بحرا، يسير مع العسكر إلى أيلة، ومنها يتوجه، ويقيم العسكر على أيلة ليلة وعلى إرم ليلة ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، أو ثانية: تأخذ يده وتحلفه برأسي ألا يجاور.

فكان لهذه الثقة إخلاص تام من القاضي الفاضل لصلاح الدين ودولته أيما إخلاص، وخدمها بكل ما لديه من مواهب: بقلمه، وفكره، ونصحه، ونفسه، وكان لذلك أثر فيما حققه من إنتصارات على الصليبيين ويتمثل ذلك جليا في قول صلاح الدين فيما بعد فتح بيت المقدس: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل".[92]

القاضي الفاضل وجيش صلاح الدين

أخذ صلاح الدين يعمل على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري يدافع به عن مصر من الغزو الإفرنجي، و لم يخف عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأن له خبرة في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة 559ه وسنة 564ه وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والآرمن والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق.[93] وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع على استقلالها، أو حتى عن بقائها. وعرف القاضي الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألم بهذان القوات، وعرف دخائلها وأطلع على كل فرقة منها، وعلى كل قائد من قيادها، و لم يضن بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته وظل طوال فترة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، يراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، يصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج. ومع أن القاضي الفاضل كان رئيسا لديوان الإنشاء ووزيرا لدولة صلاح الدين، إلا أنه كان يلم بكل صغيرة وكبيرة في الجيش بحكم علاقة ديوان الإنشاء بديوان الجيش وكان يساهم في إعداد الخطط الحربية، ويشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما، وتجهيزهما للجهاد، وقد واظب على هذه المسؤوليات طوال مدة عمله مع صلاح الدين.[94]

القاضي الفاضل والقضاء على الدولة الفاطمية

لقد أشار المؤرخ المصري المقريزي إلى الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الإنقلاب على الفاطميين بقوله: "واستعان صلاح الدين به [أي القاضي الفاضل] على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده فجعله وزيره ومستشاره".[95] وإن كلمة استعان تشير إلى دور القاضي الفاضل في تنفيذ مخطط صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية، كما أن اختيار صلاح الدين للقاضي الفاضل وزيرا له، ما هو إلا تعبير عن تقدير صلاح الدين لدور القاضي الفاضل في هذا المخطط الخطير، وفي تأسيس قواعد الدولة الأيوبية التي سبقت هذا المخطط وهذا الاختيار يشير أيضا إلى اعتراف واضح من صلاح الدين بدور القاضي الفاضل في الإطاحة بالفاطميين.[96] استمد القاضي الفاضل أسس تحركاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين و من خبرته في القصور الفاطمية، وضمن الجيوش، ومع الوزراء والمديرين، وأدرك أن هذه المؤسسات وما تضمنه من شخصيات وكر للمؤامرات التي لا تنته، ومعين للدسائس التي لا تنضب، وقد تعامل معها جميعا وشاهدها من قبل، وأيقن ايضا أنها لن تتوانى عن الاستنجاد بالفرنج على الرغم من كل ما مر بها والشعب المصري من مصائب ومحن، في سبيل الحفاظ على نفوذها، ولاسيما إذا رأت في سلطة صلاح الدين، أو في الأيوبيين عامة خطرا عليها. ومن ثم فإنه حالما خوله صلاح الدين من مسؤوليات مطلقة في الإدارة بيت عيونه ضمن هذه للمؤسسات والمجموعات الذين عرفهم وخاف شرهم، وأما المؤسسات والمجموعات هذه فقد أخذت تخطط بدورها للقضاء على حكم صلاح الدين. وقد تزعم مؤتن الخلافة تلك المجموعات وبدأ تحركاته مذ تولى صلاح الدين، وقد كان اكتشاف المؤامرة من ضمن مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي ظل يراقب ديوان الإنشاء، والمسرحين منهم بصورة خاصة. وقد ساهمت جهود القاضي الفاضل في كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة وتم القضاء على شوكته وفل صلاح الدين شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعددا، فأحرق دارا للآرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشاب فلقوا جزاءهم. وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد، ولقد تم إضعاف شوكة الفاطميين، بل كسرها خلال الأشهر الخمسة الأولى من وزارة صلاح الدين، ثم تلاها عامان تم خلالهما تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيوبي جديد سني، ولقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهد لحكم صلاح الدين المطلق في مصر، وتوليته هو (القاضي الفاضل) وزارة صلاح الدين، والقضاء على الخلافة الفاطمية.[97]

إعادة التنظيم الإداري في مصر والاحياء السني

شرع القاضي الفاضل في تنفيذ مخطط قلب نظام الحكم الفاطمي بالتخلص من أصحاب الدواوين والكتاب الموالين للفاطميين، وكان بحكم عمله في الدواوين على علم برجالات الدولة وأصحاب دواوينها وكتابها، وبولاءاتهم السياسية وميولهم المذهبية، ولقد صاحب بعضا منهم وعادى او نافس بعضا آخر. وقد واتته الفرصة للتخلص ممن يستطيع التخلص منه ففعل. وتخلص من عدد كبير من الكتاب الإسماعليين والمسيحيين واليهود وغيرهم خوفا من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو ان يتصلوا بالفرنج بإسم الدواوين التي يعملون فيها. ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتاب في اكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين. ففي إحدى رسائله عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء (570هـ/1174-1175م) يصف أحوال مصر في ظل الفاطميين بقوله: "ولهم للفاطميين حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخلة وتصيب القلوب مخالته، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل".[98] ولقد ثبت صدق ظنه فيما بعد عندما راح هؤلاء يدبرون مؤامرة للإنقلاب على صلاح الدين. وكما أنه سرح الكتاب والإداريين الذين شك في ولائهم فإنه أبقى الإداريين الذين ضمن ولاءهم، والذين كان بحاجة إدارتهم ومعلوماتهم ومساعدتهم في تطبيق مخطط الإنقلاب، وكان في مقدمتهم الخطير بن مماتي رئيس ديوان الجيش وأحد أصدقاء القاضي الفاضل، فقد خدم ابن مماتي في ديوان الجيش في عهد شاور، ودخل المذهب السني على يد أسد الدين شيركوه، وظل قريبا من القاضي الفاضل محببا إليه حتى وفاته سنة 578هـ/1182م،[99] وعين بعده ابنه الأسعد بن مماتي في الديوان. ولقد أخلص الأسعد كوالده للقاضي الفاضل الذي كان يعتمد على إدارته وولائه في أثناء غيابه عن مصر ورعى القاضي الفاضل أيضا الأثير بن بيان، صاحب ديوان النظر، وأبقاه في منصبه وهو سني أيضا، وابن بيان هذا أكبر من القاضي الفاضل سنا، وكان يعمل في ديوان الإنشاء عندما دخله القاضي الفاضل طلبا للعلم فيه، ودافع عنه عندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة، وظل القاضي الفاضل يعمل مع ابن بيان ويعتمد عليه حين تقدم ابن بيان في السن وعجز عن العمل، فقرر له القاضي الفاضل معاشا يستعين به. وأبقى الحسن المخزومي، وهو سني، ناظرا لديوان المجلس، بينما أمسك هو برئاسة ديوان الإنشاء بالإضافة إلى الإدارة العامة كوزير، وشرع القاضي في توجيه هذه الدواوين بمساعدتهم إلى خدمة أهداف صلاح الدين ودولته ومشروعه الإسلامي الكبير.[100] كما كان هناك حاجة إلى ثورة ثقافية يتم من خلالها إعادة مصر إلى المذهب السني بالتدريج، فبدأ صلاح الدين رفقة القاضي الفاضل بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة، كانت هذه المدارس بداية حركة بنائية سنية، وبدأ بالقضاء نهائيا على شعائر الخلافة الفاطمية.

القاضي الفاضل والجهاد ضد الفرنج

إن آراء القاضي الفاضل في الجهاد والمقاومة وجدت بذورها في الفترة المبكرة من حياته بسبب خبرته العملية والنظرية، كما أن نشأته الدينية والأدبية، وجو عسقلان المشحون بعدم الاستقرار والتعبئة المتواصلة، أثر أكبر الأثر في بناء شخصيته القيادية.[101] شكلت مسألة الوحدة والجهاد حيزا مهما في فكر القاضي الفاضل جاعلا فتح بيت المقدس، وتحريره من أيدي الفرنج سببا موجبا لتلك الوحدة، فوجه جل اهتمامه على الوحدة بين الشام ومصر، واتخذ من احتلال الفرنج لبيت المقدس دافعا، ومحرضا قويا لصلاح الدين وجنوده، والمسلمين عامة، للجهاد في سبيل الله بتحريره منهم، لما له من أهمية دينية عن المسلمين. فقد ركز في كتاباته عن صلاح الدين وإليه على قضيتين أساسيتين للجهاد الحقيقي، وهما: التقيد بالولاء للخليفة العباسي الحاكم، وجهاد الفرنج دفاعا عن مصر واسترداد للأراضي المحتلة، وأمضى ما يقارب الثلاثين عاما من حياته في سبيل تحقيق ذلك الهدف.[102] و لم تقتصر مساهمة القاضي الفاضل في الدعوة للجهاد لتحرير ما احتل من أراضي المسلمين، بل كان له مساهمة فعالة في رفع معنويات صلاح الدين وعساكره، واستنهاض هممهم بعد الهزائم والمحن، ومنها ماكان خلال هزيمة معركة تل الصافي عام 573هـ/1177م،[103] حيث كتب رسالة عن صلاح الدين، حاول من خلالها التقليل من قيمة الخسائر وأثرها فعكست تلك الرسالة المعنويات العالية التي كان يتمتع بها صلاح الدين، ويثبت دور القاضي الفاضل في التهوين عليه، وتبشره بالنصر المنتظر.

صحب القاضي الفاضل صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية، ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، وبعدئذ عاد إلى الشام بجوار صلاح الدين، وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير ووفاته سنة 589هـ/1193م.[104] فقد رافقه في غزواته الأولى في العهد الفاطمي إلى غزة وعسقلان وأيلة سنة 566هـ/1170م، وكانت تلك الغزوة أول عملية حربية يشترك فيها القاضي الفاضل مع صلاح الدين ضد الفرنج، وكانت تلك الحملة بنصيحة الفاضل لأهميتها الإستراتيجية. وكانت الغزوة الثانية التي اشترك فيها القاضي في جنوب فلسطين، معركة الرملة وعسقلان سنة 573هـ/1177م، ذلك أن فرنج الشام هاجموا حصن حارم الذي كان نور الدين محمود قد استرده أثناء حملة أموري الثانية على مصر سنة 563هـ/1166م فأراد صلاح الدين أن يخفف الضغط الفرنجي عن الشام وينتهز فرصة خلو مملكة الفرنج من قسم كبير من محاربيها، فاتجه إلى جنوب فلسطين محاطا بعساكره ومستشاريه، فرافقه القاضي الفاضل في تلك الغزوة مصطحبا معه عددا من الأدباء والكتاب.[105]

توجه كذلك القاضي الفاضل مع صلاح الدين إلى حصن الكرك حيث حاصره حصارا شديدا استمر مدة أشهر، وراسل أخاه الملك العادل في مصر، وطالبه بالقدوم إلى الكرك، وخرج هو على رأس

قواته إلى أن وصل إليها وحاصرها، ورماها بالمنجيق. ووافاه الملك العادل، وعرف صلاح الدين بخروج الفرنج لنجدة الكرك فانسحب عنها منتصف شعبان 579هـ/1183م،[106] راجعا إلى دمشق وأرسل ابن أخيه تقي الدين نائبا إلى مصر، وفي صحبته القاضي الفاضل، وبعث اخاه على مملكة حلب، وأعمالها.[107] لكن لم يكد القاضي يرتاح حتى استدعاه صلاح الدين مع تقي الدين عمر فعاد إلى الشام أوائل سنة 580هـ/1184م، لأنه كان ينوي محاصرة الكرك مرة ثانية، وقد التقت القوات المصرية بقيادة تقي الدين، والقاضي الفاضل مع قوات صلاح الدين في الكرك جمادى الأولى 580هـ/ آيلول(سبتمبر) 1184م، فحاصر صلاح الدين القلعة مدة قصيرة ثم تخلى عنها بسبب تجمع الفرنج من شتى جهات المملكة لمؤازرتها.[108] وكان القاضي الفاضل قد بعث الكتب والرسائل إلى الخليفة في بغداد يشرح فيها أحوال حصار المسلمين للحصن.[109]

أما في معركة حطين 583هـ/1187م، فكان القاضي الفاضل في دمشق بسبب الأمراض التي كانت متراكمة عليه، ولمراقبة ما يجري فيها، لأنها أصبحت مركز تجمع قادة المملكة اللاتينية الأسرى الذين اقتيدو إلى دمشق، يتقدمهم ابن القاضي شرف الدين بن عصرون، فكان القاضي الفاضل يشاهد تلك الأفواج، ويشاهد الغنائم، وكان يعد ويحصي كعادته أن كل شيء مسجل ومحصى. فأرسل إليه صلاح الدين رسائل تبشره بالنصر، فلما قرأ القاضي الفاضل رسائل صلاح الدين المعلنة نصره، وكانت تصل إليه مترادفة، ذرف الدمع فرحا، وأسف لأنه لم يحضر ذلك النصر الكبير،[110] فكتب مهنئا ومشجعا.

كما كان للقاضي الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة 586هـ/1190م، فقد كان موجودا بمصر يدير شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من عبر موقعه يرتب لصلاح الدين أموره، من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، وإرسال الكتب السلطانية، ومراسلة صلاح الدين مشيرا ناصحا، فكان يشجعه، ويحثه على الصبر ويقوي من عزيمته، لمواصلة الجهاد، وعدم اليأس، أو القنوط من رحمة الله تعالى.[111]

دعوته إلى الوحدة بعد وفاة صلاح الدين

ظل القاضي الفاضل محافظا على مكانته المعنوية في البلاد، بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر 589هـ/ 1193م،[112] فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتخذ منه ناصحا ومشيرا. إلا أن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتا أو اندفاعا في التدخل في شؤون الدولة، فقد آثر الانعزال على العالم السياسي، وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية، فقد تقسمت الدولة وتقسم العمل في ديوان الإنشاء بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاص لم يكن راضيا عن تصرفاتهم

زمن تنفذه، كصفي الدين بن شكر،[113] وزير الملك العادل، وضياء الدين،[114] وزير الملك الأفضل، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه. فأدرك القاضي الفاضل أن بوفاة صلاح الدين تبدد حلم كبير كرس له قسطا كبيرا من حياته، فقد تقسمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها بين أبناء صلاح الدين، الذين راحوا يتنافسون في شأنها، ويتناحرون، مندفعين بأنانيتهم، مغفلين أمر العدو الرابض على حدودهم، فراح يدعوهم إلى التحالف وحاول التقريب بينهم، و لم يترك مناسبة تمر من دون أن يذكرهم بضرورة توحيد الصف.[115]

ثالثا: القاضي الفاضل والكتابة

أسلوبه

يدل أسلوب القاضي الفاضل –وإن صعب على البعض فهمه– على ثقافة واسعة وإطلاع على الأدب والحديث والفقه وغيرها من العلوم، وعلى فهم عميق للقرآن الكريم. حيث يمثل أسلوبه طريقة ثالثة في التعبير اختصت اللغة العربية بها إلى جانب الطريقتين السابقتين في الآداب الأخرى، وهما الشعر والنثر المرسل.[116] وكان من أهم الأشياء التي أضافها: التورية ونثر القرآن الكريم على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار، فأما التورية فالقاضي الفاضل هو الذي عصر سلافتها لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره، وأما نثر القرآن فالمقصود به أن القاضي الفاضل كان يأتي ببعض الآيات القرآنية فينثرها في رسائله؛ ويدمجها إدماجا حسنا في كلامه، فكأنها جزء من هذه الرسائل. وإلى هاتين الخاصتين أضافت المدرسة الفاضلية خاصتين أخريين ليستا من خلقها في الواقع، ولكنهما من خلق المدارس الأدبية التي سبقتها، غير أن المدرسة الفاضلية هي صاحبة الفاضل في الوصول إلى هاتين الخاصيتين إلى أقصى الشوط؛ وهما: التوجيه والإقتباس او التضمين. فأما التوجيه فهو استخدام المصطلحات العلمية على إختلافها في الأدب، وأما التضمين وهو غير نثر القرآن، فقد أكثر منه شعراء ذلك العصر وضمنوا شعرهم كثيرا من القرآن حينا والحديث حينا.[117]

ثم أن الأدب المصري في العصور التي نعنى بتاريخها كان على مذاهب او مدارس ثلاث، منها مدرسة البديع التي زعيمها القاضي الفاضل؛ ومن تلاميذها ابن سناء الملك، وابن النبيه، وعمر ابن الفارض، ومحي الدين بن عبد الظاهر، وابن نباتة وغيرهم.[118] أما موقفه من الشعر فقد كان ممن يؤمنون بمجده، وخلوده، ويرون الدهر أعجز عن أن يقضي عليه ويبيده، إذا يقول:

و لم أر قرنا يعجز الدهر حربه سوى الشعر، إن الشعر يبقى على الدهر

وقد تناول القاضي الفاضل في شعره الأغراض المعروفة للشعر العربي: من غزل ومدح، وفخر وغيرها، ولكن أجود شعر ما قاله في المدح، وشعره يمتاز كما يمتاز نثره بجودة سبك الصناعة اللفظية، فهو لا يدع نوعا منها، إذا تأتى إستخدامه، ولكن هذه الصناعة لبراعته فيها لم تذهب بجودة شعره. ولهذه الناحية من خصائص شعر القاضي الفاضل أعجب رجال الصناعة به، ومثلوا لألوانها المختلفة بشعره، مسجلين له أعظم تقدير وإعجاب.[119]

مؤلفاته

كان للثقافة والمعارف الواسعة التي تمتع بها القاضي الفاضل أثر بالغ على نتاجه الفكري والتي تجلت بوضوح في الكم الهائل من الرسائل التي بقيت محفوظة لحد الآن فلقد قام بروكمان بإحصاء رسائل القاضي الفاضل، ورصد أماكن المحفوظة فيها وهي:

1- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم، حققه الدكتور أحمد بدوي، القاهرة 1951م.
2- رسائل عن الحرب والسلام، حققه الدكتور محمد نغش، القاهرة 1984م.
3- الفاضل من كلام الفاضل، مخطوط، دار الكتب المصرية، رقم:(3882) أدب.
4- الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل، مخطوط مكتبة الأزهر، رقم:(7035) أدب.
5- الرسائل الحجازية، مخطوط بالفاتيكان.
6- كتابة مكاتبة، مختصر من متبلج الأنوار ومتأرج النوار في المكاتبات إلى الملوك والوزراء والعلماء مما جمعه ابن مماتي من قول القاضي الفاضل، مخطوط بالفاتيكان.
7- رسائله إلى الخليفة في بغداد، مخطوط في باريس، وأورد مجموعة من رسائله ومكاتباته المفردة. انظر: تاريخ الأدب العربي 6/10/11.

كما يوجد العديد من الرسائل المختلفة الموضوعات محفوظة في مكتبات جامعة لندن وكمبدرج والمتحف البريطاني وميونج، عدا الرسائل الموجودة في دار بغداد للمخطوطات التي تحمل رقم 39535.[120] وللقاضي أيضا رسائل أخرى كثيرة في معظم كتب التاريخ والأدب ولاسيما في المصادر التالية: الخريدة والروضتين، والمفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ونهاية الأرب في فنون الأدب، ومسالك الأنصار في ممالك الأمصار، والأنس الجليس وغيرها. وقد حقق على نجم عيسى رسائل القاضي الفاضل من مخطوطة المحفوظة في مكتبة الأوقاف في الموصل.

مدرسته وتملكاته ووقفه للكتب وتعميره المكتبات

أنشأ القاضي الفاضل بالقاهرة إلى جانب داره مدرسة سميت نسبة إليه بالمدرسة "الفاضلية" سنة 580هـ/1184م، ووقفها على الشافعية والمالكية، وخصص احدى قاعاتها لإقراء القرآن الكريم وتعليم

علم القراءات على الإمام القاسم أبي محمد الشاطي (صاحب الشاطية ت596هـ/1294م)،[121] وجعل إلى جانبها كتابا ووقفه على تعليم الأيتام. ووصف المقريزي هذه المدرسة بقوله: "وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها"،[122] كما كان له دار الحديث الفاضلية بدمشق.[123]

الخاتمة

إن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة يحتاج إلى تظافر الجهود الفكرية والجسدية قوامها الوحدة والعمل، فلقد تمتع القاضي الفاضل بالخصال الفكرية والعملية ما أهلته أن يكون الرجل الثاني في دولة صلاح الدين، حيث جمع بين واقعه السياسي ومرونته ودهائه وبين هدف كبير نذر نفسه له وصبر مع السنون لتحقيقه، وكان على يقين تام أن طريق النصر هو من اتبع طريق الإسلام -أي طريق أهل السنة- وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد الإيمان والقوى والهوان. و لم تغب بيت المقدس وفلسطين عن باله فمنها خرج وببركتها كانت العودة على خطى الفتح المبين، فما تشرب منه في عسقلان بأهمية الجهاد من أجل الوطن، رواه صلاح الدين بجهاده ضد الصليبيين وذلك بمساهمته في التخطيط والعمل.

إن هذا الرجل الفقيه والعلامة الفصيح يعلمنا دروسا مهمة ينبغي اتباعها خاصة في الوقت الراهن وما يعشيه بيت المقدس ومسجده الأقصى من تهويد وطمس لهويته الإسلامية. فبرغم احتكاكه بالشيعة زمن الخلافة الفاطمية إلا أنه بقي متمسكا بمنهجه السني دعوة وعملا موظفا بذلك قدراته وكل إمكانياته في الشأن العام والعمل الإجتماعي والحكومي، متميزا في آداء العمل وبكل إخلاص لله أولا ثم لصلاح الدين ولبيت المقدس. كما أثبت لنا أن القلم رفيق السلاح وكأنه تنبأ بالمعركة المعرفية والثقافية التي نعيشها الآن لأن معركتنا مع الإحتلال الصهيوني في أساسها ليست معركة حجارة وبنيان، بل هي قبل ذلك معركة حضارة وإنسان. فأول عدة لنصر وتحرير المسجد الأقصى هو حسم المعركة في العقول قبل حسمها في ميدان القتال.

الهوامش

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1979، ص192.

[2] شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج2، ص7.

[3] شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق إحسان عباس، ج3، بيروت: دار صادر، 1967، ص128؛ صلاح الدين الصفدي، **الوافي بالوفيات**. تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج6، بيروت: دار احياء التراث، ص126؛ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج4، القاهرة: دار الفكر، 1979، ص324؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج8، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1933-1949، ص1.

[4] هادية راغب الدجاني، **القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (٥٢٦هـ-٥٩٦هـ/١١٣١م-١١٩٩م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته**، ط1، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص25.

[5] شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**. تحقيق: بشار عواد ومحيي هلال، ج21، بيروت:مؤسسة الرسالة، ط1، 1984، ص338

[6] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص134

[7] بيسان: مدينة بالأردن ويقال لها لسان الأرض تقع بين حوران وفلسطين. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج1، تحقيق أحمد رفاعي، القاهرة: مطبوعات دار المامون، 1979، ص625.

[8] عسقلان:هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين تقع على ساحل البحر بينها وبين غزة نحو عشرين ميلا. ابن ادريس، **نزهة المشتاق**، ج1، ص356؛ البغدادي، **مراصد الإطلاع**، ج2، ص940. وقيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنها: "أبشركم بالعروستين غزة وعسقلان".

[9] تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج7، القاهرة: المطبعة الحسينية، 1906، ص166.

[10] الدجاني، **القاضي الفاضل**، ص39.

[11] جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، ج3، القاهرة: دار القلم، 1953، ص110.

[12] عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج5، بيروت: دارالبحار، 1961، ص128.

[13] زين الدين عمر بن المظفر ابن الوردي، **تتمة المختصر في أخبار البشر**. تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ج2، بيروت: دار المعرفة، ط1، 1970، ص173.

[14] أحمد بن عبد الوهاب النويري، **الإلمام بالأعلام**، ج2، تحقيق محمد عبد المعيد كان، الهند: حيدر آباد، ط1، 1967، ص170.

[15] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص161.

[16] الدجاني، **القاضي الفاضل**، ص40.

[17] عبد اللطيف البغدادي، **كتاب الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**. تحقيق أحمد غسان شبانة، دمشق: دار قتيبة، 1983، ص8-9؛ أحمد ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**. شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص 687؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**، ج2، القاهرة: دار الطباعة المصرية، 1853، ص367.

[18] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج21، ص343.

[19] السبكي، **طبقات الشافعية**، ج2، ص284.

[20] عماد الدين الاصفهاني، **ديوان العماد الأصفهاني**. تحقيق ناظم رشيد، جامعة الموصل، 1983، ط1، ص394.

[21] **المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط)**، ص27.

[22] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج2، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1973، ص200.

[23] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج41ص316.

[24] المقريزي، مرجع سابق، ج3، ص200؛ ابن ميسر، **تاريخ مصر الإسلامية**، ص144.

[25] عبد الرحمن مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج4، ص325

[26] المصدر نفسه، ص 324.

[27] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج21، ص344.

[28] المقريزي، **المواعظ**، ج2، ص367.

[29] عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر: شعراء مصر**، ج1، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1962-1963، ص36

[30] عبد العظيم المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**. تحقيق بشار غوار معروف، ج2، العراق، 1969، ص210

[31] يعرف ابن وهب الترسل فقال:"كلام يراسل به من بعيد، فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك". انظر في كتاب: **البرهان في وجود البيان**، ص191.

[32] أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج2، ص242.

[33] المقريزي، **الخطط**، ج3، ص313

[34] عبد القادر بن محمد النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، دمشق: المجمع العلمي العربي، 1948-1952، ص67.

[35] تاج الدين محمد ابن ميسر، **تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب**، ج2، مصر:المعهد العلمي.

[36] شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ج38، 1987، ص66.

[37] ابن ميسر، **تاريخ مصر الإسلامية**، ص97

[38] الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج1، ص221.

[39] المصدر نفسه، ص97.

[40] أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج1، ص330.

[41] المصدر نفسه، ص103.

[42] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج2، ص89.

[43] المصدر نفسه، ص89.

[44] الحموي، **معجم البلدان**، ج9، ص 152.

[45] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ص89.

[46] علي ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. القسم الرابع، القاهرة: اصدار كلية الآداب، 1939، ق4.

[47] الحموي، **معجم البلدان**، ج9، ص 125-153.

[48] النويري، **نهاية الأرب**، ج29، ص6.

[49] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2/89-90.

[50] المصدر نفسه، ص 6.

[51] الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص 145.

[52] السيوطي، محمد ابو الفضل ابراهيم، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**. ج1، القاهرة: عيسى الباب الحلبي، 1964، ص47.

[53] أحمد حسن الزيات، **تاريخ الأدب**. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص247.

[54] القلقشندي، أحمد بن علي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج1، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1916، ص95.

[55] شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**. القاهرة: دار المعارف، ط7، 1984، ص348.

[56] ابن النديم، محمد ابن إسحاق، **الفهرست**. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ص 197.

[57] الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج1، ص37.

[58] ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص687؛ البغدادي، **كتاب الإفادة**، ص8-9.

[59] جمال الدين عبد الرحيم الإسيوني، **طبقات الشافعية**، ج2، ص284.

60 الأصفهاني، **خريدة القصر**، ص 394.

61 عز الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**. مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، ج9، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ص251.

62 يوسف سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**. تحقيق ريتشارد جويت، شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1907، ق2، ج8، ص473.

63 الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ص343.

64 مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج1، ص400.

65 ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص162.

66 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج4، ص473.

67 محمد صفي الدين عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر (٥٦٢١)، كان وزيرا مهيبا عالما فاضلا، مات بالقاهرة، وله بها مدرسة، وكان مؤثرا لأهل العلم والصالحين. كان يقول: "مافي قلبي حسرة إلا ابن البيساني، وما تمرغ على عتباتي يعني القاضي الفاضل "، انظر: **ذيل الروضتين**. ص167.

68 ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ص472-473؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج21، ص341.

69 محمد سهيل طقوش، **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام**. ص418.

70 ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج2، ص528.

71 المقريزي، **الخطط**، ص401.

72 الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج6، ص127.

73 مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج1، ص312.

74 بهاء الدين يوسف بن رافع ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**. تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964، ص37.

75 المقريزي، **المواعظ**، ج3، ص 113.

76 ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص37.

77 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج1، ص140

78 ابن العديم الحلبي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ج1، بيروت:دار الكتب العلمية، ط1، 1996، ص345.

79 المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ج3، ص276-277.

80 ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص76-77.

81 المصدر نفسه، ص78-80.

82 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج1، ص176.

83 مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج1، ص312.

84 النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ص69.

85 العاضد: أبو محمد عبد الله الملقب العاضد بن يوسف بن الحافظ بن مهدي بن المستنصر ابن الظاهر ابن الحاكم بن العزيز بن المنصور، آخر ملوك مصر من العبيدين، ولد سنة 546هـ/1151م، وتوفي سنة 567هـ/1171م، كان شديد التشيع متغالبا في سب الصحابة.

86 ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص109-111.

87 ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ص434.

88 عبد العظيم المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، ج2، ص210.

89 ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج7، ص287؛ السبكي، **طبقات الشافعية**، ج7، ص178.

90 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج2، ص241.

91 ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ص472.

92 جمال الدين الشيال، **تاريخ مصرالإسلامية**. ج1، القاهرة:دار المعارف، 1967، ص248.

93 الدجاني، **القاضي الفاضل**، ص126-127.

94 المقريزي، **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**، ج2، ص266.

95 الدحاني، **القاضي الفاضل**، ص141.

96 من رسالة القاضي الفاضل للخليفة المستضيء: أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ص618-619.

97 محمد حسنين ربيع، **النظم المالية في مصر: زمن الأيوبيين**. القاهرة: دار الدعوة، 1994، ص80-93.

98 الدحاني، **القاضي الفاضل**، ص135.

99 المرجع نفسه، ص40.

100 المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ج3، ص320.

101 ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص120.

102 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج4، ص359-364.

103 الدحاني، **القاضي الفاضل**، ص246

104 ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ج12، ص385.

105 ابن كثير، مرجع سابق، ج12، ص385.

106 المصدر نفسه، ج4، ص202-209.

107 المصدر نفسه، ج3، ص205-206

108 المصدر نفسه، ج3، ص353

109 أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج4، ص173.

110 ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص244.

111 صفي الدين بن شكر: الوزير صفي الدين عبد الله بن عبد الله بن علي حسين الدميري المالكي ابن شكر، ولد سنة 548هـ/ 1153م، وتوفي سنة 622هـ/ 1225م؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج3، ص215-216. وزير الملك العادل، وضياء الدين ضياء الدين: أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الكاتب البليغ صاحب المثل السايرانتهت إليه كتابة الإنشاء والترسل ومن جملة محفوظاته شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي وزر بدمشق للملك الأفضل فأساء وظلم ثم هرب. ابن العماد، **شذرات الذهب**،ج5، ص187.

112 علي الصلابي، **صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس**. بيروت: دار المعرفة، 2008، ص305.

113 ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص205

114 النويري، **نهاية الأرب**، ج8، ص8.

115 تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **السلوك لمعرفة أخبار الملوك**، ج1، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956، ص146.

116 الدحاني، **القاضي الفاضل**، ص349.

117 عبد اللطيف حمزة، **الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول**. القاهرة: دار الفكر العربي، 1968، ص280-282.

118 المرجع نفسه، ص 283.

119 أحمد أحمد بدوي، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**. القاهرة مطبعة الرسالة، 1967، ص360-361.

120 علي عيسى نجم، **رسائل القاضي الفاضل مجير الدين عبد الرحيم البيساني**، بيروت: دار الكتب العلمية، ص8.

121 الدحاني، **القاضي الفاضل**، ص349.

122 المقريزي، **المواعظ والإعتبار**، ج1، ص327-328.

123 النعيمي، **الدارس فى تاريخ المدارس**، ج1، ص69.